إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة التاسعة ـ العدد الثالث والثلاثون ـ ربيع ١٣٩٨ش/ آذار ٢٠١٩م
صص ٨٥ ـ ٦٩

العطار النيسابورى والرؤى السريالية فى تذكرة الأولياء

فاطمة امامى*

الملخص

السـريالية (الفوق واقعية)، هى مدرسـة فنية وأدبية نشأت فى العقد الثالث من القرن العشـرين فى فرنسا. تحمل الرؤى والأفكار اللاشعورية (اللاوعى) والذاتية والتجريد والخيال فأصبحت عناصر واقعية فى سـاحة الفـن والأدب، كما أنها أمور لها مكانة خاصة ومميزة فى ساحة التصوف. وعلى الرغم من معرفتنا بأن المبادئ والنماذج التى تتميز بها الأعمال الأدبية والصوفية لدى أدبائنا لا تنطبق تماماً مع السريالية كمكتب ومذهب، ولكنّ هناك دلالات متقاربة ورموزاً متشـابهة لمكوّنات المدرسة السريالية مثل السـخرية، والسـحر، والحالات الغريبـة، والرؤيا (الحلم)، والكتابـة التلقائية، والجنون والتهور والمصادفة، تُمكّننا من دراسة الرؤيا فى تذكرة الأولياء للشاعر العطار النيسـابورى. ومن هذا المنطلق يقوم البحث على أسـاس المنهـج التحليلى المقارن. ومن خلال هذه الدراسة، توصّل البحث إلى أن الرؤيا فى تذكرة الأولياء برزت كأحد الأدوات والوسـائل التى استعان بها الشـاعر لعرض أفكارٍ استقاها من عالم يتفوق الواقـع إلى أبعد الحدود انفتـح إليه من خلال مراتب الشـهود الحاصلة لديهً ضمن تجربته الصوفية.

الكلمات الدليلية: العطار، تذكرة الأولياء، الرؤيا والرؤى، السريالية.

---

*. أستاذة مساعدة فى اللغة الفارسية وآدابها، فرع رودهن، **جامعة آزاد الإسلامية**، رودهن، إيران
Femami@gmail.com

تاريخ الاستلام: ١٣٩٧/١٠/٢١ش تاريخ القبول: ١٣٩٨/٣/١٢ش

المقدمة

يتكوّن لفظ السـريالية من جزأين؛ (Sor) بمعنى "فـوق" و(Real) بمعنى "الواقع". (أنوشه، ١٣٧٦ش: ٨٣٦) وهى مدرسة فنية أدبية نشأت خلال الحربين العالمتين الأولى والثانيـة فى أوروبا وبالتحديد فرنسـا. كمـا يعدّ هذا التيار الفكرى امتداداً للمدرسـة الدادئيـة وهى حركة عبثيـة رفضية ناتجة عن العدمية والإنكارية، نشـأت بعد الحرب العالمية الأولى فى أوروبا. فى الواقع ظهرت السريالية كردّ فعل ثورى فى أعقاب الحرب العالمية حوالى عـام ١٩٢٠م حيث انفصلت مجموعة من الدادئيين بقيادة أندريه بريتون وأسسـت مدرسة تدعى السريالية. والسريالية هى فى الواقع تمرّد ضد الحضارة الغربية، لأن أعضاء هذه المدرسـة، هم من تزامنت فترة مراهقتهم الحرب العالمية الأولى. يعتقد هؤلاء أن الحضارة التى تسـببت فى الحرب والدمار لا يمكن أن تكون موثوقة بأى حال من الأحوال. لهذا السـبب تقدم هؤلاء الشـباب فى الاهتمام الفكـرى بالقوى الفكرية للعقـل الإنسـانى من خلال ثورة فكريـة وفنية. فحاولوا تغيير الظروف غير المسـتقرة لحياتهم بمسـاعدة هذه القوى. وتوقعوا أنه إذا تم إطلاق القوى الخفية للروح البشـرية، فإنه من المتوقع تحقيق حياة أفضل. ولقد أدركوا أن الحياة على أسـاس العقل لا تصلح. وللهروب من الواقع، لجأوا إلى حقيقة تتجاوز الواقع الظاهر. لم ترفض هذه الحركة جميع القيم الإنسانية، بل سعت إلى إيجاد قيم جديدة يمكن أن تحقق لهم حياة أفضل، فوجدوا هذه الحياة فى إطلاق كل القيود عن العقل. (ثروت، ١٣٨٥ش: ٢٨٠)

يرى أندريه بريتون فى بيان عام ١٩٢٩م أن هدف السـريالية هو اكتشـاف نقطة فى ذهن الإنسـان تتحد فيها جميع التناقضات. يقول بيرتون:«كل شىء يقودنا إلى الاعتقاد بأن العقل البشـرى لديه نقطة حيث الموت والحياة، الخيال والواقع، الماضى والمستقبل، القابـل للتحويل وغير القابل للتحويل، الصعـود والهبوط، لا يبدو أنها متناقضة. والآن أياً كانت كمية البحوث والدراسـات فى هذا المجال، فإن كل ما يهمّ هذه المجموعة هو البحث عن هذه النقطة والحافز الوحيد لنشـاطات السـرياليين هـو تحديد هذه النقطة بالذات، فمن هذا المنطلق يتضح أن مجرد وصف محاولات هذه المجموعة بأنها مدمّرة أو بنّاءة، فهو وصف باطل وعمل عابث لا فائدة منه. لأن النقطة التى نتحدّث عنها لا يمكن

اعتبار التدمير والبناء فيها أمرين نقيضين.» (بيگزبى، ١٣٧٥ش: ٥٤) وهى نقطة تتلاقى فيهـا الروح والمـادة ويزول فيها النقيض حيث لا خلاف ولا تباين بين الشـيئين. وهو اللامكان حيث لا يتسع فى الزمان ولا فى المكان. لا يمكن تصوره فى الحالة العادية، وهى نقطـة البداية والنهاية والظاهر والباطن. تكمن هذه النقطة فى جغرافيا الخيال. لا يمكن إدراكها إلا بواسطة اللاشعور والخيال، حيث الوصول إلى الحقيقة والخوض فى الاتحاد الخالص بين الوجود والكائن الموجود أو الوصول إلى هذه النقطة المعنية، يتطلب التحوّل الأساسى فى القوى العقلانية والحسية. والخيال أو اللاشعور هو الطريق الوحيد لخوض هذا العالم. فى هذه الحالة يصبح الجسـم مرناً ولـه قوة غير عادية. والاغتراب الحقيقى للإنسـان إنما يكمن فى الابتعاد عن هذه النقطة ونتيجة نقله إلى العالم المحسـوس المحدد. توفر الكتابة السـريالية أساساً للتخلص من هذا الاغتراب. فاستخدم السرياليون سبلاً بعيدة كل البعد عن أى تحكّم خارجى دون رقابة العقل لكشـف عالم اللاشعور والخيال وهى: ١- السـخرية والاستهزاء ٢- السحر والشـعوذة ٣- الرؤيا والحلم ٤- الكتابة التلقائية / الشطح بالقول ٥- الجنون ٦- المصادفة.

أهداف البحث

يسـعى البحث معتمـداً النهج التحليلى المقـارن إلى أن يحلل ويقـارن بين مبادئ السريالية وأسـاليبها المختلفة لدراسة بنية الرؤيا وإشـكاليتها بشتى أنواعها فى تذكرة الأوليـاء ليعرض وظائف مماثلة للسـريالية فيها. كما أن البحـث يوضح فى جانب من الدراسـة أن العطار اسـتعان بالرؤيا كأداة لكى يعبّر من خلالها عن عالم يفوق الواقع المرئى والذى توصل إليه من خلال مراتب الشهود الحاصلة لديه.

خلفية البحث

يعدّ كتاب "الشروح الأربعة لتذكرة الأولياء" الكتاب الوحيد الذى خصّص جزء منه لموضوع الرؤيا فى تذكرة الأولياء. وقد أشـار مؤلفه بابک أحمدى فى أحد الشـروح إلى موضوع الرؤيا فى تذكرة الأولياء فحسـب، من غير بحث ودراسة. وهناک مقالة أخرى تحمل عنوان "التطابق الشكلى للأدب السريالى فى تذكرة الأولياء للعطار النيسابورى"،

قامت بدراستها كل من مريم جهان تيغ وفاطمة تيموری فتحی. وهناک أعمال حول المضمون وبنية النص أو الحبكة فی تذكرة الأولياء ولا يمت لموضوع هذا المقال بصلة.

وما هو ملاحظ أنه لم يخصص أی مقال أو كتاب للرؤيا أو الحلم السريالی فی تذكرة الأولياء للعطار النيسابوری. ولكنّ هناک مقالاً حول مثنويات جلال الدين محمد البلخی تحت عنوان "الرؤی فی مثنويات جلال الدين الرومی" لسيد أحمد پارسا وكما يبدو من العنوان، فقد تطرق المقال إلى أنواع الرؤی دون الإشارة إلى الرؤی السريالية. وبناء على هذا، فإن هذا البحث يعدّ أول بحث علمی يسلط الضوء على أنواع الرؤی والرؤيا السريالية فی تذكرة الأولياء وفيه نقاش حول أنواع الرؤيا ودورها فی تذكرة الأولياء للعطار النيسابوری.

الرؤيا

لا تقل الرؤيا مرتبة من الصحو لتصل فی تلک الحالة إلى حكمة متعالية. يعتبر أراغون أن «الرؤيا شكل من أشكال الوحی، يتحدث فيه الآلهة إلى ضحاياها وكل ما يحدث فی عالم الرؤيا يحفظه صاحبه بكل أمانة وموضوعية.» (أحمد سعيد، ١٣٨٠ش: ٢٨٩)

ويمكن اعتبار الرؤيا شكلاً آخر من أشكال التفكير ووسيلة للطمأنينة النفسية يحتاج إليها كل أفراد البشر. و«الرؤيا كأحلام اليقظة وسيلة للخلاص من التنازع النفسی والعودة إلى الظلمات الثلاث مع الفارق بينهما فی حصول الخيال عند الصحو وحصول الرؤيا عند المنام.» (أنوشه، ١٣٧٦ش: ٢٢٠)

يقسّم الصوفية الرؤيا على أنها نفسانية وروحانية (إلهية). الرؤيا الإلهية هی تلک الرؤی الصادقة لأنها تحصل بكل وضوح من جانب الخالق والأنبياء والملائكة. وتحصل الرؤيا الصادقة لمن بادر برياضة النفس ومجاهدتها حسب رأی الصوفية. فی هذه الحالة تنكشف الأسرار للعارف الصوفی عند المنام. ويتحول المنام له إلى ملجأ لحل المشاكل ويكون بمثابة مفتاح لفتح الأقفال. «وكثيراً ما نقرأ فی قصص الصوفيين أنهم عندما يواجهون صعوبات فی أمر الدين يجدون الحل وطريق النجاة فی المنام والرؤيا تحديداً

أو فى الواقع أحياناً أو أنهم يتوسّلون بالدعاء ثم يرون فى المنام طريق الحل، ذلک لأن النوم عند الصوفيين هو أحد طرق الكشف والشهود تحصل لديهم عندما تتصل الروح بعالم الغيب.» (فروزان فر، ١٣٧٤ش: ٢٥٨)

تعطى الرؤيا لأوهامنا شكلاً وحالة وتجسّدها خير تجسيد. وباستعانة هذه التصاوير نتحدث مع مخلوقات وهمية أو نتحدّث مع شخص ميّت لا وجود له فى الحياة أو "أن نعطى مقطوع الرأس كأساً!". ونتيجة لشدة المحبة، يسمح الصوفى لنوع خاص من الرؤيا أن تتحكم فيه وفى سلوكياته وأقواله حتى تصدر منه سلوک كامل وأقوال غريبة وهى تصرفات لاإرادية ولا هى مكتسبة ولا تمارس، بل هى كالحركات والخطابات والسلوكيات التى تصدر دون إرادة من الشخص يمكن عدّها عملاً إبداعياً وتذوقاً فنياً يصدر عن محبة متزايدة.

والفرق بين الخيال الأدبى والفكرى الإبداعى لدى الصوفى الحقيقى والآخرين من الشعراء والأدباء والفنانين، هو أن هؤلاء يبتكرون الفن والإبداع حسب متطلبات العصر، ولكن العارف الصوفى فهو بعيد كل البعد عن المجتمع وقضاياه. لهذا ترى أن كل إبداعاته الفنية متغيّرة من لحظة لأخرى وتتنوع من حين لآخر. فهذه اللحظات هى وليدة رؤيا عاطفية لاإرادية ناتجة عن الحالات النفسية لا يدركها أى أحد.

والسريالية هى مدرسة تتبع حقيقة تفوق واقع الرأسمالية العالمية. فالسريالية هى التعبير وتحديد التفكير بعيدا عن تحكم العقل فيه، وليس له علاقة بقوانين الجماليات والأخلاق. من أجل استخلاص حقيقة يعتبرونها خافية فى أعماق الضمير والعقل الباطن، يسير الكاتب أو الشاعر بعيداً عن الواقع فيعيش حالة حلم، ثم يدوّن تلک الحالات والتصورات العقلية التى تحصل تلقائياً دون إرادة منه يدوّنها كتابةً ولا صلة لهذه النصوص بالعقل الباطن واللاوعى بتاتاً، وإنما هى حالات كشف وشهود. لهذا نرى الرؤيا السريالية وهى لا إرادية ونابعة عن العقل الباطن، ترتبط بالسريالية.

منذ ألف سنة قبل آندريه بيرتون، ألّف الصوفية المسلمون كتاباتهم المثيرة والمنتشية بأساليب وضع أسسها السرياليون الفرنسيون فى بداية القرن العشرين. وقد شهد تاريخ التصوف الإسلامى كثيراً مما يعرف بشطحات الصوفية والمشاهدات والكشوفات.

ومن النماذج الرائعة يمكن الإشـارة إلى رؤى روزبهان بقلى الشيرازى فى كتاب كشف الأسـرار. (ميبدى، ١٣٨٢ش: ٤٧) وفيه تأليفات مثيرة تشاكل تأليفات سريالية تشمل جميع القواعد التى شـرحها السـرياليون فى بيانهم المعروف. وكثيراً ما تحدّث محى الدين بـن عربى فى كتابه الفتوحات المكية (خواجوى، ١٣٩٣ش) وسـائر أعماله عن الرؤى التى رآها فى المنام واسـتناداً للأحاديث النبوية الشـريفة، اعتـبر ابن عربى أن الرؤيا مبدأ الوحى وجزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (غراب، ١٩٩٣م: ٤) وتعدّ لحظات الشغف والإثارة والجنون عند مولانا جلال الدين محمد البلخى فى غزلياته (فروزان فر، ١٣٩٥ش) وسكره عند الكتابة، هى من التجارب السريالية.

الرؤيا فى تذكرة الأولياء

إن للرؤيـا مكانة خاصة تفوق الزمان فى أعمال العطار النيسـابورى. فالرؤيا عند العطـار ليس بمعنى غياب الحواس أو راحة البال. من منظور آخر، يعتبر العطار الرؤيا نوعـا من الموت بالمعنى الموصـوف أعلاه وغياب الحواس واجتياز عـالم المادة. وتعدّ الرؤيـا فى تذكرة الأولياء مرحلة اجتياز هذا العـالم إلى عالمٍ يفوق الزمان وهو مرحلة اللازمان أو مرحلة الغيب حيث تخلص الروح من الجسـم والعودة إلى التجربة الأزلية. الرؤيـا فى قصـص العطار هى عنصر أسـاس، ظرفٌ يجتاز أبطـال القصص من خلاله الزمـان. واللافـت للانتباه هو أن الرؤيا توفّر مجالا من خـلال الاتصال مع عالم الغيب الذى يهيمن على عالم العطار العابر، ما يمكّننا من اجتياز الزمان والحضور فى المستقبل بتجليه بصورة مجازية. كما جاء فى سـورة يوسـف عند حل رمـوز الرؤيا والتعبير عنه بالتأويل. فى هذا الأثر الأدبى يتعلق الزمان بعالم المادة والشـهادة وله مسافة معينة. بعد اجتياز المسـافة المعينة من الزمان، بإمكاننا إدراك حقيقة تحدث فى النوم. يمكن مقارنة هذه الحقيقة مع يوم السـاعة والعالم الآخر الذى يظهر بعد اجتياز المرحلة الأخيرة من الحيـاة وهى نقطة الموت النهائية. وبناء على هذا، فإن السـلوك الصوفى فى وجهة نظر العطـار، هو اجتياز حدود الزمـان. ثم قارنوا الرؤيا بالموت. وفى رواية عن النبى (ص) أن النوم هو أخو الموت وفى كلتا التجربتين، يتجلى ما هو خارج الزمان كتجربةٍ خارج

تجربة الحياة وعالم المادة.

وفى تذكــرة الأولياء يرى الكاتب أن الوصول إلى الاتصال الغيبى والتواصل الإلهى يتطلبــان خلفية يتحقق الاتصال من خلالها، كالمنام والرؤيــا. النوم كالبرزخ يربط بين عالمين فى فترة وجيزة. فتعرف من خلال الشروح وسيرة المشايخ الذاتية أن الموت ليس نقطة النهاية وأن الشيخ يزور مريديه ويتواصل معه حتى بعد وفاته وذلك فى المنام من خلال الرؤيا الصادقة. كما وردت أحاديث حول رؤية الخالق فى منام الصوفية العارفين ذلــك اللقاء الذى حصل فى الأزل ووُعد به فؤجل إلى يوم القيامة. كما يمكن دراســة الرؤيــا فى تذكــرة الأولياء من عدة زوايا مختلفة، ولما فى الرؤيا والمنام من أهمية فى هذا الكتاب، سنقوم بدراسة أنواع الرؤيا فى تذكرة الأولياء دراسة وافية.

أنواع الرؤيا فى تذكرة الأولياء

بإلقاء نظرة دقيقة فى تذكرة الأولياء، نرى أن كل الرؤى هى من نوع الرؤيا الصادقة، فيمكن تقسيم هذه الرؤى من حيث الفكرة والمضمون إلى أنواع مختلفة وهى كالآتى:

١- الرؤى المنبّئة: من أفضل أنواع الرؤى هى تلك التى ســتحصل أحداثها فى عالم الواقع، وإحدى سماتها الرئيسة أن صاحبها يطلع من خلال النوم على أحداث وقضايا ستحصل له فى المستقبل وباستعانة هذه المعطيات الغيبية يتمكّن من تحسين حياته ليقوم بمكافحة الشر ومحاربة الخبائث والفشل. ومن طبيعة هذه الرؤى أن يتم شرح الأحداث المستقبلية عبر مشــاهد تحصل بالصورة الدقيقة وبجميع تفاصيلها أو أن هناك إشارات وإيماءات تدل بها.

«رأوا داوود الطاعــى فى المنــام وهــو يقفز فى الهواء قائلا: "تخلصت من الســجن" والتعبير هو أنه كان قد مات.» (العطار، ١٣٨٦ش: ١٥٧)

«قال ربيع: قبل أيام من وفاة الشافعى، رأيت فى المنام أن آدم عليه السلام قد توفى وأراد الناس إخراج جســده. عندما استيقظت تساءلت عن التعبير: قال المفسّر من هو أكثر علماً فى زمانه يموت. لأن العلم هو مزية آدم. وحقاً كان قد توفى الإمام الشافعى.» (م.ن: ٢٠٠)

٢- الرؤى المنبّهة وفک رموز الرؤيا: أســاس هذه الرؤى قائمة على تحيّر الشخص فى أمــرٍ ولا يجد له حلاً، فإذا بالحل يتجلى له فى الرؤيا ويدرک الرائى كيف يفعله. على ســبيل المثال يمكن الإشــارة إلى الرؤيا التى رآها يحيى (ع). «تــورط يحيى فى المدينة بمائة الف درهم وفى الليل رأى يحيى، النبى (ص) قال له: لا تحزن يا يحيى قم وسِــر إلى خراســان، فإن هناک امــرأة وضعت لک ثلاثمائة الف درهم مقابــل مائة الف درهم.» (م.ن: ٣٢٧)

ومثــل هذه الــرؤى المنبّهة قد ينبّئ بها الأموات، فالتنبيــه والهداية فى الرؤيا تحصل باســتعانة شــخص متوفّى. واللافت للنظر فى تذكرة الأولياء أن هناک نوعا من الرؤى المنبّهة يحضر فيها الميت فى رؤيا شــخصين. أى تحصل الرؤيا بصورة مشتركة لشخصين. ونشــاهد هذه الرؤى المشــتركة فى تذكرة الأولياء حيث إن النــبى (ص) يحضر فى منام شخصين فى رؤيا واحدة.

٣- تجســيم الفكرة: يقول كزازى فى هذا النوع مــن الرؤيا: «يرى أصحاب مذهب القوى الخفية (الحروفيون) أن القوة والكفاءة الفكرية كلّما ازدادت كلما تجلت كهيئة، أو بعبارة أخرى إذا ما وصل الفكر إلى درجة من التقارب والتناسق وأصبح ذات محورية يتجلى بصورة واضحة ويتجسد هيئة.» (كزازى، ١٣٨٥ش: ١١٤)

حســب التعريف المذكور أعلاه، فإن مثل هذه الكفــاءة الفكرية فى الرؤيا قد تحدث بالفعل لدى الأشخاص. وهناک نماذج كثيرة منها فى تذكرة الأولياء جاءت بالصورة التى يتأقلم الرائى معها فى رؤياه ويعتبرها حقيقة حتى أنه حين يستيقظ فى عالم الواقع يشعر أن تلک الفكرة قد تحدث بالفعل بعبارة أخرى كأنها تتحوّل إلى "شكل" أو "هيئة". كما نــرى فى القصة التى تروى عن رجل جائع رأى النبى (ص) فى منامه وهو يعطيه رغيف خبز، فبعد أن يستيقظ الرجل من النوم يرى الرغيف فى يده. (العطار: ١٢٠)

«تجسيم أو تجسيد الفكرة بمعنى أن الفكرة وباستعانة تقنية معينة تتجلى شيئاً أو شكلاً ملموســاً. ويطلق تجســيد الفكرة فى علم ماوراء النفس على نوع من السلوک وآلية فى نفس الإنسان تتجســد الفكرة باستعانتها شكلاً وهيئة ملموسة، بعبارة أخرى، فبإمكان الفكرة أن تتحول إلى شــكل أو شــىء تجسيداً إذا ما وصل إلى أقصى درجة من العمق

والكثافة والسماكة.» (كزازى، ١٣٨٥ش: ١١١)

وهناك نماذج أخرى لهذا النوع من الرؤى نشير إليها فى السطور التالية:

«يقول جنيد: سِرت يوما إلى شخص كان يبكى فقلت: ما بك؟ قال: خطر على بالى أن أعلق هذا الإبريق حتى يبرد ماؤه، ثم خلدت إلى النوم فرأيت حور عين، فسألتها لمن تكون؟ فأجابت: لمن لا يعلق الإبريق حتى يبرد ماؤه! ثم ألقت بالإبرق على الأرض. أنظر ماذا حصل؟! يقول جنيد: رأيت الإبريق مكسوراً بعد إفاقتى من النوم وبقى الإبريق على حاله لفترة طويلة.» (العطار، ٢٨٨)

(والصفحة ٥٠٦، رؤية جريرى للنبى (ص) فى المنام. والصفحة ٥٦٨، رؤية أبى على الدقاق وداء العين)

٤- الرؤى بين الصحو والنوم: أغلب القصص الواردة فى تذكرة الأولياء تحصل فى حدود ما بين الصحو والنوم وهو عبارة عن سلوك معنوى يحدث فى عالم الكشف والشهود أو الرؤيا تحديداً، وتعرض جميع المناقشات والبحوث الكلامية فى باب الحب والوصل والفناء على المنتقدين فى العالم كلوحة سريالية، كتلك القصة التى يرويها العطار: «رأى أحد المشايخ الكبار حلاج فى عالم المنام و هو يمسك كأساً بيده دون رأس. قال : ما هذا؟ أجاب: أنه يقدم الكأس إلى من رؤوسهم مقطوعة.» (م.ن: ٥٩٤) وفى مكان آخر، تقول أم على زوجة أحمد خضرويه: «فى إحدى الليالى وأنا أطوف الكعبة غلب علىّ النوم. فرأيت فى المنام أنى أحلّق فى السماء حتى بلغت العرش وتحت العرش صحراء تنتشر فيه الورود والرياحين، مكتوب على كل ورقة منها أن أبا زيد ولى الله.» (م.ن: ٢١٠) وقد رأوا أبا سفيان الثورى فى الرؤيا. «قالوا له كيف صبرت على وحشتك فى القبر؟ قال إن قبرى روض من رياض الجنة.» و«قد رآه آخر فى الرؤيا وهو يقفز فى الجنة من أحد طرفى ظل شجرة إلى الطرف الآخر.» «سألوا عن تفسير هذه الرؤيا؟ ففسروه بالورع.» (العطار: ٢٣٠) تستمد اللغة الصوفية مفاهيمها من الرموز الاستدلالية والمجازية للتعبير عن المقصود. وفى جميع النماذج والشواهد المذكورة فى تذكرة الأولياء ظهرت اللغة الرمزية واللغة غير المباشرة بصورة مبدعة.

٥- الرؤى التمثيلية المجازية: هناك سبع وعشرون رؤية تمثيلية فى تذكرة الأولياء.

ولهذا النوع من الرؤى الرمزية والمجازية أهداف معينة منها: (معرفة الآخرة ص: ٦٠)؛ (الوعى بالموت، صص: ٦٩٠، ١٨١، ٢٢٠)؛ (التعليمية ومعرفة الأسرار، صص: ٥٧١، ٤٩٥)؛ (فى منزلة الصوفى العارف، ١٠٦، ٥٧٦، ٥٧٧، ٥٩٨)؛ (لون من ألوان المعراج، ٦٢٣، ٦٦٨)؛ (الوعى بالمستقبل، ٢١٦)؛ (التعليم، ٤٨، ٢٦٩)

عن حسن البصرى: جاء أن أحد المشايخ الكبار رأى فى المنام أن أبوب السماء فتحت وقد نادى منادٍ أن حسن البصرى قد وصل إلى الله وأن الله راضٍ عنه. (العطار، ١٣٨٦ش: ٤١)

فى الواقع إن العطار إنما يروى رؤى الصوفية وحالاتهم ليعرض كرامة أولياء الله فى حضوره عز وجلّ، كما يبيّن للقارئ من جهة أخرى تجربة الحياة الصوفية.

يرى أحد الصوفية أنه يُلْمَلم رفات النبى (ص). والتفسير: بعد أن استفسر عن الرؤيا من أحد أصحاب ابن سيرين. قال له: «إنک تبلغ فى علم النبى والحرص على اتباع سنته مكانة رفيعة حتى أنک تتصرّف فيه وتميّز بين صحته وسقمه.» (م.ن: ٢٢٠)

«إن جمع رفات النبى فى المنام رؤية تمثيلية مجازية والحصول على مفاهيمها الأساسية لا يتحقق إلا بعد إمعان فى تفاصيل الرؤيا، ولا يمكن لكل أحد أن يحصل عليها أو أن يفسّرها.»

قال أبو الحسن الخرقانى: «رأيت فى المنام أننى مع بايزيد وأويس القرنى فى كفن واحد.» (م.ن: ٥١١)

هذه الرؤيا وهى تمثيلية أيضا تحتاج إلى تفسير. لماذا ثلاثة أشخاص فى كفن واحد؟ وينبغى أن تعرف أسباب رؤية هذه الرؤيا وماذا تحمل من رسالة إلى الرائى؟

قال أبو بكر الصيرفى: «رأيت فى المنام أن التراب انفتح وخرج منه الشيخ ثم أراد أن يقفز فى الهواء.» (ص: ٥٧٥)

رأى أحد كبار المشايخ الحلاج بدون رأس، بيده كأس وهو واقف. (ص: ٥١١)

ما هو سر رؤية مثل هذه الرؤى؟ لماذا هو واقف؟ ولماذا بدون رأس؟

وكثير من الأسئلة، وكيف أن الرؤيا تتراءى للرائى بمشاهد تمثيلية. ويتطلب فهم رسالتها إلماما تاماً وقلّة قليلة تستوعب تفسير مثل هذه الرؤى الغامضة بصورتها

الصحيحة.

واللافت للنظر أن الـرؤى إما قد رآها المتصوفة أو الرؤى التى رآها الآخرون عن الصوفية العارفين، فى تقسـيم آخر يتناول البحث الرؤى على أساس مَن يرى الرؤيا أو بعبارة أخرى من هو الرائى؟ ومَن هو يأتى فى المنام أو بعبارة أخرى من هى الشخصية فى الرؤيا؟

١- مَن رأى الرؤى (الرائى)

إن الرؤى التى جاء ذكرها فى تذكرة الأولياء، قد أُفصِح عن رائيها أحياناً: كأم على زوجة أحمد خضرويه؛ بنت أمير هروى، الخليفة، إبراهيم النبى، وسـلطان محمود. ومنها لم يفصـح عن رائيها. كما جاء ذكره بالعبـارات التالية: رأى صوفى فى المنام، رأى أحد المشايخ فى منامه، رأى رجل زاهد مرتاض أو شاب فى المنام ..

فى كلتا الحالتين، تعود الأهمية إلى موضوع الرؤيا. حين يكون الرائى معروفا، يؤكد العطار على أهمية الرؤيا. ذلك لأن شخصية الرائى، أى من رأى تلك الرؤيا هى ذات أهميـة. وحينما لم يكن الرائـى معروفا يبدو موضوع المنام أكثر أهمية. وأحيانا يشـير العطار إلى عدد المرات التى حصلت فيها الرؤيا ما يزيد من أهمية تلك الرؤيا. وأحياناً تتكرر الرؤيا الواحدة لدى عدة أشـخاص مـا يدل دلالة واضحة على أن تلك الرؤيا تحمل رسالة معينة وهامّة فى نفس الوقت.

يرى أبو بكر الصرفى فى المنام «أن القبر انفتح وخرج منه الأستاذ وأراد أن يقفز فى الهواء» (ص: ٥٧٥) يرى أحد الأشـخاص أبا على الدقاق فى المنام: «رأى أحدهم أبا علـى الدقاق أنه يمر عـبر الصراط» (ص: ٥٧٥) الملاحظ هنا أن الرائى غير معلوم ولا فائدة من ذكر اسمه.

٢- الشخصية التى يراها الرائى فى المنام

فى هذه المجموعة من الرؤى، يلاحظ نوعان من الأشـخاص فى الرؤيا: ١- من هو معـروف مع ذكر اسمه، ٢- من هو غير معـروف ودون ذكر اسمه. فى الرؤى التى تناولها العطـار فى تذكرة الأولياء، هناك ثمانية أشـخاص جاء ذكر اسمائهـم فى الرؤيا، وعلى

رأس تلـك الرؤى وهى الأكثر أهميـة تلك التى يرون فيها الله عزوجلّ. ورؤية الخالق فى المنام هى من الأمور الفوق واقعية والسريالية، قد تكرر مثل هذه الرؤى ٢٦ مرة فى تذكرة الأولياء.

قـال أحمد خضرويه: «رأيت الحق عزوجلّ فى الرؤيـا يقول: يطلب الرجال منى ما يريدونه إلا بايزيد فإنه يطلبنى أنا لا غيرى.» (ص: ١٥٥)

الطائفة الأولى ترى الخالق فى المنام. وسـبب ذلک إنما يعود إلى عدّة حالات وهى: كرامة الصوفى العارف (٥٤)، الرعاية الربّانية وصفاء قلب الصوفى (١٠٧)، نقل رسـالة من الخالق إلى مخلوقه، التوبة (١١٠،١١١)، فتح باب العلم (١١٩)، قيمة الدعاء (٢٣٨)، قيمة الإحياء والتهجّد فى سبيل الله (٣٢٨) وما إلى ذلک.

الطائفة الثانية ترى النبى (ص) فى منامها. ورؤية النبى الذى رحل منذ سنوات عديدة عن هذه الدنيا، فهى من الأمور الماورائية الفوق واقعية والسريالية. وقد شوهدت تلک الرؤيا ما يقارب ثلاثين مرة فى تذكرة الأولياء. ويذكر أن العطار يشير إلى النبى بأسماء مختلفة، فيناديه مرة المصطفى ومرات أخرى الزعيم والرسول والسيد. وسبب رؤية النبى أيضا تعود لحالات متعددة منها؛ كرامة الصوفى العارف (صص: ١١٥، ١٨٦، ٤٦٠، ٥٠٦ و٧٠٤)، لمصالحة الصوفى مع نفسـه (١٢٣)، لنقل رسـالة من الخالق، أو لاداء حق الأم (٥٨)، الوعى بالموت (١٣٧)، ذكر فضائل ذرية النبى وتقرّبهم إليه (١٨٧)، فى حفظ السنة النبوية (٢٠٩).

ومـمـن حضر فى رؤيـا الصوفى العارف، فى تذكرة الأولياء، علـى بن أبى طالب (ع). ورؤية من ضمّه التراب سنين عديد وأزمنة مديدة، هى من الأمور السريالية. وقد شوهد ثـلاث حالات من الرؤيا لأمير المؤمنين على (ع) فى تذكرة الأولياء. وذكر باسـم أمير المؤمنـين والمرتضى (ع). وكما يبدو أن الصوفى العـارف عندما يرى عليّا(ع) فى رؤياه يكـون ذلک إما للاتعاظ والنصـح (١١٥) التحلى بعلم النـبى (ص) والإمام على (ع) (٢٩٨، ٢٩٧) والأخذ بوصية ما (٢١٦).

والطائفـة الأخرى التى تأتى فى المنام هى الصوفيـة. هناک ٣٢ حالة رؤيا حصلت لعـدة من الصوفية العرفاء حيث رأوا الصوفى العارف الراحل عن هذه الدنيا فى منامهم

وقد سألوه ما صنع الله بک؟ فالكشف عن أسرار ذلک العالم، هى من الأمور الفوق واقعية. فتتبيّن أهمية مصير العارف فى عالم ما بعد الموت للرائى وهو أمر لا يصدّق.

وفى مثل هذه الرؤى، يتلقى الصوفى جواباً كله مغفرة ورحمة من رب العالمين: «عاتبنى وقال لى: لِمَ كنت خائفاً منى غايةَ الخوف؟ أما علمت أن الكرم صفتى؟» (١١٦)

ورآه آخَر فى المنام فقال له: «لم يكن أحبّ منک عندى على وجه الأرض فى الساعة التى قبضت فيها.» (١١٦،١١٧)

ومن الحالات الأخرى، سكان أهل السماوات وسكان العرش الإلهى، الملائكة، الحور، ملک الموت، وإبليس. يأتون فى المنام، ألم تكن رؤيتهم فى المنام لحل المشاكل وإزالة العقبات، أمراً فوق الواقع؟ ومن الدواعى التى جعلت العطار يذكر مثل هذه الرؤى يمكن حصرها إلى حالات تخص العارف، منها: كرامة العارف (١٠٦)، اطلاع العارف على الغيب (٢١٤، ١٨٦)، الخيار الصحيح (٢٨)، التعليم (٢٨٨).

فالزمان والمكان والجنة والصراط هى الأخرى من جملة الرؤى التى جاءت تسع مرات فى تذكرة الأولياء. مما لا شک فيه أن تصوير هذه الأمكنة ما فوق الواقعية ورؤيتها فى المنام تعدّ من الأمور السريالية. والعرفاء إنما يرون هذه الرؤى لدواع وأسباب منها تعليمية (٤٨)، ومنها كرامة للعارف (٥٧٦)، أو خشية إفشاء سرٍ من الأسرار الإلهية: «رأيت القيامة فى المنام فجاء خطاب فى سمعى: إنّا ابتليناه لإفشاء سرى إلى الغير.» (٥١٩).

والملاحظ فى تذكرة الأولياء أن العرفاء لن يروا النار فى المنام، ما يدل على أن تذكرة الأولياء كتاب تبشير للتعبير عن الرحمة والمغفرة الإلهية.

والطائفة الأخرى هى منكر ونكير وفى تذكرة الأولياء يأتيان أربع مرات فى منام العارف. ولم يذكر أى إشارة فى الكتاب إلى الشخصية التى رأت منكر ونكير ولا إلى صفاتها، ما يجعلنا نصنّف رؤية منكر ونكير ضمن الرؤى السريالية. واللافت للنظر أن العرفاء يتحدّثون إلى منكر ونكير بتبختر وجبروت:

كيف أجبتم على أسئلة منكر ونكير؟ «يجيبون بلهجة متغطرسة: فى ذلک اليوم الذى قالوا لنا: ألست بربكم». (٣٩٣) ويأتى فى مكان آخر: «يجيب بلهجة متغطرسة، ما يثير

استغراب الملائكة فيقول بعضهم لبعض: إنه لا يجيب عن نفسه فحسب وإنما عن جميع الخلق من ولد آدم.»

النوع الآخر من الرؤى هى المعراج. جاء فى تذكرة الأولياء نوعان من الرؤيا المعراجية: إحداها معراج أبى الحسن الخرقانى فى المنام (٦٢٣) والأخرى معراج الخلق من المسجد إلى السماء (٦٦٨). ورؤية المعراج هى من جملة الرؤيا التى تصنّف ضمن الرؤى السريالية.

إذا ما أردنا إحصاء الرؤى السريالية فى نظرة عابرة فهى كالآتى:

أ-الرؤى الأولى:

١-الرؤى المنبئة؛ ٢-الرؤى المنبّهة وفك رموز الرؤيا؛ ٣-تجسيم الفكرة أو تجسيد الفكرة؛ ٤-الرؤى بين الصحو والنوم؛ ٥- الرؤى التمثيلية.

ب-الرؤى الثانية:

١-رؤية الخالق فى المنام؛ ٢-رؤية النبى (ص) فى المنام؛ ٣-رؤية الإمام على (ع) فى المنام؛ ٤-رؤية العارف الميّت فى المنام؛ ٥-رؤية الجنة والنار فى المنام.

بعد دراسة مضمون الرؤيا فى تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار النيسابورى يتبيّن أن هذه الظاهرة تحمل فى طيّاتها وظائف مختلفة ولها دور هامّ وفعال فى تحقيق ما كان يرمى إليه النيسابورى، لهذا يمكن القول: إن وجود الرؤيا فى أكثر القصص والحكايات تجعلها أكثر إيقاعاً وتأثيراً فى نفوس الجمهور. وظائف الرؤيا فى تذكرة الاولياء كالآتى:

١-حل المشاكل، ٢-الاستلهام والبشارة، ٣-أداة للتعبير عن المفاهيم العرفانية، ٤-التوصية، ٥-التمنى والرجاء فى المنام، ٦-الاستفسار فى المنام، ٧-أداة للتعبير عن الرحمة والمغفرة الإلهية، ٨-وسيلة لإرشاد وتوجيه العرفاء، ٩-ذريعة لنقل رسالة من جانب الخالق إلى العارف.

كانت الرؤيا محط اهتمام الصوفية والعرفاء من زوايا عدّة. وفى أحوال الصوفية بالتحديد، حظى تفسير رؤيا العارف بمكانة بارزة. وبدراسة مضامين الرؤى التى تناولها كتاب تذكرة الأولياء بين الحين والآخر، نرى أن هذه الرؤى جاءت متناسقة مع غاية

الصوفية من طريقة السـير والسلوك العرفانى. وأحد هذه الأهداف هو شرح الكشوف والشهادات العرفانية.

ولم تشاهد الرؤى المشتتة والأضغاث من الأحلام فى تذكرة الأولياء، ويدل هذا على أن العطـار يختار الرؤى المؤهلة والمفضلة ليوظفها فى تحقيق المفاهيم العرفانية والدينية. ويشمل ذلک أيضا الرؤيا الصادقة التى تكشف عن وقائع حدثت فى الماضى أو ستحدث فى المستقبل.

قد خضعت رؤى العرفاء للبحث والدراسة بموضوع الكشف بشقيه؛ حل المسألة، ورفع السـتار عن الصراعات العقلية واكتشاف الأحداث المستقبلية. توضح هذه الدراسة أن أحد أهم وظائف الرؤيا التى قدّمها العرفاء فى تذكرة الأولياء، تتمثل فى حل العديد من اللنزاعات والقضايا العقلية خاصة فى مجال القضايا الدينية والصوفية العرفانية. إضافة إلى ما قدمه العرفاء من التعبير عن القضايا من خلال الرؤيا، فقد كان لهم دور بارز فى قوة تأثيره على الجماهير. إن حل مثل هذه المسائل فى رؤيا العارف، يُنظر إليه باعتباره مكاشفة ملهمة، تنبئ عن أحداث لم تحدث بعدُ فى الواقع.

قد أشـار العطار فى تذكرة الأولياء إلى دور الطموح الإنسـانى وانعكاسه فى الرؤيا بشـكل واضح. ورؤية تلک الرؤى الصادقة للعرفاء والصوفية إنما هى لامتلاكهم قلوباً صافية وضمائر نيّرة. كثيراً ما يسـتمد العطار بأسلوب التمثيل لشرح الأفكار والمفاهيم العرفانية والدينية والفلسفية، ذلک لأن اللغة التى تنبع عن الإحساس والأفكار العادية، لا يمكن أن تكون بأى حال من الأحوال أداةً مناسبة لنقل المفاهيم العرفانية. وبناء على ذلک، فإن الرؤيا التى تتحدد كبناء لدرک الأسرار الغيبية، لابد أن يعبَّر عنها بلغة تمثيلية رمزية يلفها بعض الغموض أحياناً.

لا شک فى أن الرؤيا عادة ما تستخدم للتنبؤ عن الأحداث المستقبلية، ولكن العرفاء والصوفية فى تذكرة الأولياء، إنما يوظفون الرؤيا لإيضاح طريق السير والسلوک العرفانى. وقد اسـتعملوا الرؤيا فى مجالين أساسـيين؛ التنبّؤ عن أحداث المستقبل، والتواصل مع الأمـوات. وكثيراً ما تردد وتكرر فى هذا الكتاب، رؤية العارف للعارف الميّت الراحل عن هذه الدنيا فيراه فى المنام ويسأله: ما صنع الله بک؟ وفى أغلب الحالات، يكون الردّ؛

الصفح عن الذنوب ويحصل العفو لأدنى عذر. والغاية الرئيسة لهذا الكتاب والرسالة التى أراد العطار إيصالها من خلال الرؤيا فى تذكرة الأولياء، إنما هى انعكاس الرحمة والمغفرة الإلهية الواسعة، على خلاف كثير من الكتب التى تبعث الرعب والفزع والعذاب الإلهى فى القلوب. ولكن تذكرة الأولياء كتاب يبعث على التفاؤل والأمل والرجاء فى المغفرة والرحمة الإلهية.

النتيجة

من أهم النتائج التى توصل إليها البحث، هو تبيين هدف السريالية فى توعية الإنسان بنظرة ورؤية جديدة بالنسبة للأشياء والعالم. وقد عمدوا فى ذلك إلى أنه قد يحصل من خلال تشتيت العقول وإثارة الاستغراب ما يثير الدهشة والحيرة. ولم يكن آندريه بيرتون أول من دعا إلى تدوين الرؤى وتعبير الرؤيا وتفسير المتاهات كتابةً من خلال لغة تتناول القضايا الفوق واقعية، وإنما أسلوب هذه الكتابة بدأ منذ أن ميّز البشر بين الرؤيا والواقع. ومنذ آلاف السنين قبل آندريه بيرتون وأتباعه، قد كتب الصوفية من خلال مؤلفاتهم المثيرة وغير الواعية بنفس الأسلوب الذى كتب بها السرياليون الفرنسيون فى القرن العشرين.

نحن فى تذكرة الأولياء نواجه أنواعاً مختلفة من الرؤى، ولكن يصب اكتراثنا إلى تلك الرؤى التى تحتوى على سمات سريالية. رؤى تعبّر بلغة ما فوق الواقعية، لا تُصدَّق ولا تنطبق مع العقل أى أن المنطق لا يمكن أن يقبله ويأخذ به. ففى عالم الواقع لا يمكن التحدّث إلى الخالق او إلى النبى أو إلى الإمام على أو سائر العرفاء الذين رحلوا عن عالمنا، تلك الرؤى التى تعرض حلولا للمشاكل والمسائل المتعلقة لعالمنا الواقع. وجميع الأحداث التى تقع فى الرؤيا من خلال المنام، تنعكس آثاره فى الواقع. وهى الرؤى التى يمكن اعتبارها نوعا من المعراج. يمكن تقسيم الرؤى السريالية فى تذكرة الأولياء إلى قسمين: الطائفة الأولى: الرؤى المنبئة؛ الرؤى المنبّهة وفك رموز الأسرار؛ تجسيم الفكرة؛ الرؤيا بين الصحو والنوم؛ الرؤى التمثيلية. والطائفة الأخرى: رؤية الخالق؛ رؤية النبى (ص)؛ رؤية الإمام على (ع)؛ رؤية العارف الميّت؛ رؤية القيامة والجنة. وفى

بعـض الأحیان یندمج النوعان من الرؤی مع یعضهما ما لا یمکن تفکیکها وتصنیفها فی طائفة واحدة دون أخری.

المصادر والمراجع

ابن عربی، محی الدین. (۱۳۹۳ش). الفتوحات المکیة. محمد خواجوی. ط۲. طهران: دار مولی للنشر.

أنوشـه، حسـن. (۱۳۷٦ش). القاموس الأدبی الفارسـی. طهران: دار نشـر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامی.

أحمدسعید، علی. (۱۳۸۰ش). التصوف والسریالیة. حبیب الله عباسی. طهران: دار سخن للنشر.

أحمدی، بابک. (۱۳۷٦ش). أربعة شروح لتذکرة الأولیاء للعطار. طهران: دار مرکز للنشر.

بیگزبی، سی. و (۱۳۷۵ش). الدادئیة و السریالیة. حسن أفشاری. طهران: دار مرکز للنشر.

پارسـا، سیدأحمد. (۱۳۸۸ش). «أنواع الأحلام والرؤی فی المثنوی». مجلة الأدب العرفانی. الدورة ۱. الربیع والصیف. صص ۳۳-۵۸

ثـروت، منصور. (ش۱۳۸۵). «الرؤیـا ودورهات فی النصوص العرفانیة». اللغة والأدب الفارسـی. دوریة کلیة الآداب والعلوم الانسانیة. جامعة تبریز. سنة ۵۲. خریف وشتاء. صص ٤۷-۲٤

جهان تیغ، مریم. (۱۳۹۱ش). «التشابه الصوری فی الأدب السریالی فی تذکره الأولیاء للعطار». دراسة الشعر (بوستان الأدب- العلوم الاجتماعیة والإنسانیة) الخریف. الدوره ٤. العدد ۳ (الرقم التسلسلی ۱۳). صص ۱۸-۱

فروزان فر، بدیع الزمان. (۱۳٦۱ش). شرح مثنوی شریف. طهران: دار ومکتبة زوار للنشر.

کزازی، میرجلال الدین. (۱۳۸۵ش). الرؤیا ملحمة الأسطورة. طهران: دار مرکز للنشر.

میبدی، أبوالفضل رشیدالدین. (۱۳۸۲ش). باهتمام علی أصغر حکمت. طهران: أمیر کبیر للنشر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی